الديــن والعقــل

للدكتور رجب بودبوس

قسم علم التفسير

الديــن والعقــل

للدكتور رجب بودبوس

ان المتأمل في الدين والعقل يبدو له أن هناك تعارضا جذريا بينهما : فالعقل محدود ، منطقي لا يستطيع تعقّل التناقض ، لا يستطيع تعقّل الا الحس والذي يمكن ادراكه بأدوات الحس المختلفة ، فالعقل في النهاية ليس الا خلاصة أدوات الحس والرابط بينها ، وبدون هذه المنافذ لايعقل العقل شيئا .

بينما يقوم الدين على مفارقات : الله الذي لا يُدرك ولا يحد بزمان ولا مكان ، ومع ذلــك يجب الايمان به ، كيف نؤمن بما لا نستطيع ادراكه ؟ ولكي نؤمن بما لا نستطيع ادراكه كانت الرسالات السماوية والرسل ، ولكن هذه بدورها تطرح على العقل مشكلات عدة ناقشها المتكلمون ولم يحسموا فيها القول منذ عدة قرون . وهناك أيضا مسألة البعث : هل اذا متنا وكنا ترابا نبعث من جديد ؟! وتتعرض للمساءلة ؟ ثم قضية الروح والجسد هذه الثنائية التي تحطمت على صخرتها عشرات المذاهب التفسيرية دون أن تجد لها حلا يقنع العقل به .

ان الله الخير الذي يدعونا الدين الى الايمان به ، لا نستطيع أن نوفق بينه وبين الشر . ان الشر موجود بنفس القوة والفعالية التي للخير ، فكيف يستقيم وجود الله الخيِّر مع الشر ؟ واذا كان الله مصدر الخير فما هو مصدر الشر ؟ هل ننتهي هنا أيضا الى التسليم بثنائية ؟ واذا كان الله مصدر الخير والشر فان هذه يطرح قضيتين أساسيتين ؟

١ ــ مشكلة الحرية الانسانية

اذ كيف أوفق بين حريتي كانسان وبين هذا الاله الذي أخضع لــه ؟

ثم هل في هــذه الحالة فعلي ينتسب الي ؟ اذا كان الخير والشر مصدرهما الله فانني في الحقيقة لست فاعلا لفعلي ، ويصبح الامر كما وضحه « ماليبرانش » وكما قال به الكثيرون غيره من مفكري الاسلام والمسيحية واليهودية « ان الانسان لا يفعل وانما الله يفعل بواسطة الانسان ، ان تريد رفع يدك أو أن تخطو خطوة ، لست أنت الفاعل فالله هو الذي يحرك يدك وقدميك » ، وفي هذه الحالة فان حرية الانسان تصبح لا معنى لها وفعله لا وجود له . وفي هذا المفهوم فان العقل يصبح مشلولا ، وتصبح الحقائق تأتي من خارج الانسان ، والعقل الخلاق لحقائقه يصبح بين أمرين : اما ينمحي أمــام « الدين » واما يرفض الدين ، ما يصنع حقائقه واما تصنع له وتفرض عليه !

ولكن هذا الموقف العاجز لم يستمر طويلا ، اذ تحول العقل ، لكي يحافظ على ايجابيته ، الى « التمرد » ، غير أن هذا التمرد تجاوز حدوده، حين نفى العقل كل ما لا يستطيع ادراكه ، وبما أن الله أساس الدين والله لا يمكن ادراكه ، فان العقل عمد الى نفي الله ودحض الادلة المتقدم بها « المؤمنون » على وجود الله ، حيث اعتقد العقلانيون أن هذه الادلة نفسها تناقض العقل بالرغم من أنه أريد بها اقناع العقل : فالدليل الغائي يعني أن كل ما في الوجود يهدف الى غاية ، اذن هذه الغاية سابقة ، وهذا ما ينفي حرية الانسان وفعله ، الدليل الوجودي ، دليل الفعل والفاعل كلها تهاوت أمام نقد العقل وهكذا استطاع برتراند راسل أن يدحض الادلة التي وضعها المؤمنون واحدا تلو الآخر[1] . كما استطاع البارون

---

(١) برتراند راسل : محاضرة « لماذا لست مسيحيا » ٦ مارس ١٩٢٧ .

دولباخ نقد أدلة وجود الله المقترحة من قبل ديكارت[٢] • بل ان البعض الآخر لم يكتف بهذا بل تطرف في رفض الموقف الديني ، وردّ الدين وتصوراته المختلفة الى الانسان : الانسان خالق الدين ، الانسان خالق الله وليس الله خالق الانسان ، فالله ليس شيئا آخر غير الانسان الكامل ، أي أن كل ما ينقص الانسان ، أو كل نواقص الانسان يعوض عنها في تصور « الله » ، الانسان عاجز اذن الله قادر الانسان ضعيف اذن الله قوي ، والجنة والحياة الاخرى ليست الا لجعل هذه الحياة محتملة انها ما يمكّن الانسان من تحمل فكرة « الفناء أو العدم » ، وهي ليست الا تعويضا أيضا عن هذه الحياة • ان التعويض عن جحيم الحياة يتم في خلق جنة فيما وراء هـذه الحياة حيث يضع الانسان فيها كل ما ينقصه في هذه الحياة • وهكـذا اعتبر الدين ، انطلاقا من كتاب « جوهر المسيحية » لفويرباخ ظاهـرة اجتماعية انعكاسا للظـروف الاجتماعية أو تعويضا عن القهر الاجتماعي •

« عود على بدء » :

الا أن العقـل يقترف عدة مغالطات في نفي وجـود الله ورفض « الدين » •

١ ــ ان كون العقل لايستطيع ادراك الله « بالمفهوم العقليللادراك » ولا يستطيع ادراك ما يبدو في الدين من مفارقات ، لا يستلزم بالضرورة ــ ومن وجهة نظر العقل نفسه ــ رفض الدين ولا نفي وجود الله ، والا فان على العقل أن يرفض وينفي وجود كل شيء ، وهذا الموقف العقلي المتطرف هو الذي قاد الى مثالية بركلي ولاادرية ديفيدهيوم •

---

(٢) البارون دولباخ « نظام الطبيعة » •

٢ ــ واذا ما تفحصنا مذاهب علم التفسير ، خاصة المعاصرة ، نجد أن العقل قد اضطر الى الاعتراف بالتناقض وقبوله ، بل وبناء مذهب في الوجود على أساسه على أنقاض المنطق القديم الرافض للتناقض ونظرة بسيطة في فكر هيجل ، وماركس ، وسارتر وغيرهم تؤكد لنا ذلك .

٣ ــ ان العقل لا يستطيع تعقّل نفسه ، ولهذا كان أولى به أن ينفي نفسه ، وهذا ما حدث فعلا في عــدة مذاهب تفسيرية ، أي مذاهب « العبث » كالوجودية مثلا حين ارتد العقل على نفسه ، فقط علينا أن نفهم العبث هنا بالمعنى التفسيري وليس بالمعنى الاخلاقي .

٤ ــ ان عدم قدرة العقل على ادراك الله ، وتعقل مفارقات الدين يعني أن المجال ليس مجاله .

٥ ــ ان النفي كالاثبات : ان نفي وجود الله كاثبات وجود الله من وجهة نظر العقل نفسه ، أن تنفي وجود قطة سوداء في هذا المكان يعني أنك مدرك لعدم وجودها ويستوي الامر هنا في الحكم المغاير . فكان أولى بالعقل ألا يقطع في الامر وأن يتواضع .

ثم انني أريد أن أسأل أولئك الذين يريدون اثبات عدم وجود الله بأدلة وبراهين ، أولئك الذين خدعوا بهذا القول ونسجوا على منواله فأرادوا أن يقيموا الدليل على وجوده مع أنه لا يمكن لأي دليل أو برهان أن يثبت أو ينفي وجود الله ، ومصداق ذلك رغم وجود مئات الادلة على وجود الله لا زال هناك من لا يؤمن ، ورغم وجود عدد من الادلة على عدم وجود الله لا زال المؤمنون كثرة ، اذ ما هو الدليل ؟ ان الدليل ليس له من قوة اقناعية الا ما يستمده منا ، أعني أن الدليل يستمد قوته الاقناعية من كوننا « نريده » مقنعا ايجابا أو سلبا ويفقد هذه القوة حين لا نريده كذلك ، وبعد ذلك تأتي الحجج الثانوية التي تدعم ايجابية الدليل أو سلبيته « اذ ليس هناك من دليل مقنع بذاته » .

ثم ان الدليل يعتمد على ما يسمى العقل ، وهذا ليس الا اسما لمجموعة من العمليات الفكرية ، والعقل الذي يراد منه اثبات وجود الله أو نفيه هو عاجز عن اثبات نفسه ، والجميع يعرف منذ « كانت » أن العقل محدود وبالتالي ليس بامكانه الاحاطة باللامحدود ، انه عاجز عن تفسير أقل الاشياء ، وأدق العلوم يرتكز على مسلمات لا يمكن تبريرها عقليا ، ان العقل أصبح تعويذة سحرية نريدها دائما الى جانبنا لكي ندحر الخصوم ، انه « صنم ككل الاصنام » ان « الاصل من الايمان هو الايمان » رغم ما في هذا القول من تناقض ، اذا كنت مؤمنا وتريد تدعيم هذا الايمان ، فان ايمانك هو الذي يدعم نفسه بأن يضفي على الادلة طابع الاقناع ، أما اذا لم تكن مؤمنا فلن تصل الى الايمان لا بالحجة والدليل ولا بالاقناع ، وانما قد تصله « باليأس » حين تدرك أن الطريق اللامتناهي الذي ارتميت فيه قد هد قواك وأضنى روحك ولوّن بالبياض شعر رأسك فتنكص حينئذ على عقبيك محاولا انقاذ ما يمكن انقاذه ، فترتمي على أعتاب أول مسجد يقابلك ! ان القبطان لم يعد حبّاً في الميناء الذي غادره وانما لان الامواج العاتية قد حطمت صواريه وصدعت سفينته : لقد عاد لينقذ سفينته !

ان كل الادلة قابلة للدحض : حجج أرسطو ، والقديس انسلم والقديس أوغسطين والامام الغزالي والشيخ محمد عبده ، وآخرين مثل دولباخ وهيوم وماركس وراسل . ولقد سبق للسوفسطائيين أن برهنوا على ذلك ، ان المنطق لا يسري على الوجود ، انه أداة لضبط تفكيرنا وليس لضبط وجودنا ، فهل وجود الله قضية فكرية حتى يمكن للمنطق أن يبرهن عليها سلبا وايجابا ، ان التدليل منطقيا على قضية معينة لايعني بالضرورة وجودها خارج الفكر ، ولا يمكن أن نقصر وجود الله على الفكر ، ان الله قضية وجودية خارجة عن مجال المنطق واختصاصات العقل ، والطريقة الوحيدة التي يمكن ادراك هذه القضية الوجودية بها

هي « الايمان » أعني معانقة هذه القضية الوجودية وجوديا بكل تناقضاتها التي تبدو للعقل ، ان قانون عدم التناقض والوسط المرفوع وغير ذلك من قوانين المنطق لا يمكن أن تصدق الا على أفكارنا وليس على وجودنا وبالاحرى ليس على وجود الله .

الالحاد موقف سياسي :

اذن نظريا لا شيء يبرر الالحاد ، ومع ذلك يجب علينا أن نبحث عن أسبابه الجديرة به ، ولا نكتفي بمجرد بيان تهافته ، ان هذا الحماس الديني في نفي الدين ، هذا النضال المستميت في الدعوة الى الالحاد والرغبة العارمة في اقناع الناس به ، لا يمكن تفسيره من حيث الايمان أو الالحاد ، فايمان الفرد أو الحاده في هذه الحالة لا يخص ولا يمس غيره . اذن علينا البحث عن أسباب الالحاد في المجال العملي ، ان نضال الملحدين ضد الدين وضد الله يجعلنا نقرر منذ البداية بأن وراء هذا الالحاد أمور أخرى وليس مجرد الايمان أو عدم الايمان بوجود الله ، وان الطرف المقابل لا يواجه الملاحدة على هذا الاساس وانما لانهم يشكلون خطرا من نواحي أخرى .

ان الصراع في هذا الموضوع يخفي في حقيقته صراعا سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وأحيانا قوميا حين تتخذ قومية ما من دينها وسيلة للسيطرة على قوميات أخرى ، ان الافريقي الذي يلحد بالاله وبالدين المسيحي فانه يلحد بدين الرجل الابيض الذي استخدم الكنيسة لاستعماره من الداخل .

ان المطلع على الفكر الانساني والملم بواقع الانسان الاجتماعي والاقتصادي والسياسي عبر التاريخ يدرك أن أفضل وسيلة لحكم الشعوب وللسيطرة عليها هي وسيلة الدين ، اذ ليس هناك وسيلة

أنجع من ربط الوضع الاجتماعي والاقتصادي بالله وجعل الله حارس خزائن الاغنياء ، وحامي حمى الملوك وسند البابوات ومصدر القوانين التي تكرس العلاقات الظالمة ، ان بونابرت يعبر على هذا أصدق تعبير اذ يقول : « انني في مصر من أتباع محمد ، وفي فرنسا كاثوليكي ، وفي حقيقة الامر لست هذا ولا ذاك ، ولجأت الى هذا لانه ليس هناك الا الدين الذي يستطيع أن يقدم لنظام الحكم سندا قويا ودائما » ويضيف متعمقا أكثر في فضح الذين على شاكلته « ان المجتمع لا يمكن أن يعيش بدون عدم المساواة في الثروة ، وعدم المساواة لا توجد بدون دين : عندما يموت انسان من الشر بينما في جانب آخر يعاني من التخمة ، لا يمكن منع الاول من الهجوم على الثاني الا اذا كان هناك سلطة تقول له وتقنعه بأن الله يريد هذا لا بد وأن يوجد فقراء وأغنياء ، والمساواة ستكون في الجنة[٣] » . وفي هذه الحالة فان أي تمرد ضد الأثرياء وضد الملوك وضد البابوات والعمائم وبمعنى عام ضد العلاقات الظالمة يحول الى تمرد ضد الله والحاد به ، أليس الله بالنسبة لهؤلاء الرأسمالي الكبير، وملك الملوك والحبر الاعظم !! ففي ١٨٧٤ هاجم البابا مشروع الانتخابات العامة والذي كان آنذاك مكسبا تقدميا واعتبره أمر لا يمكن قبوله وخروج عن طاعة الله[٤] اذ مشاركة الملك في الحكم هي مشاركة لله في ملكه ! لقد وقفت الكنيسة ضد الحرية ، حرية العقيدة وحرية الضمير وحرية التعبير في القرن التاسع عشر ، ونددت « المقر المقدس » بعنف ١٧٩٠ بالمواد التي تنص على حرية الانسان في اعلان حقوق الانسان[٥] كما تحولت المساجد الى أماكن للتنويم وللدروشة وتثبيط العزيمة ،

---

(٣) تاريخ الفكر الحر ، ص ٩٢ .

(٤) تاريخ الفكر الحر ، ص ٩٩ .

(٥) تاريخ الفكر الحر ص ٨٤ ، ص ٩٦ .

وخطب سادية عن جهنم ، وعن الاله الجبار الذي ينتقم من كل من تسول له نفسه تعكير راحة السادة !

وازاء موقف « الكنيسة » المتصلب ـ وهي رمز لكل التعنت والرجعية الدينية ـ مساندة الملوك والنظم الظالمة ، وضد الفقراء والمناضلين من أجل العدالة والمساواة لم يجد كثير من المفكرين مندوحة من الالحاد بالدين وبهذا الاله « الظالم » ، ان الشيخ الذي يخطب في المصلين قائلا ان العبيد سيظلون عبيدا والسادة سيظلون سادة لان هذه ارادة الله ، يكرر مقولة القديس أوغسطين والتي مفادها أن العبودية عقاب من الله للعبيد فلا يجب تحريرهم لان في هذا عصيان الله !

وهنا أصبح الخيار أمام المناضلين ضيقا : اما قبول العبودية أو عصيان الله ! فاختاروا أو بالمعنى الأصح دفعوا الى عصيان الله .

ان الكنيسة تهدف من وراء هذا الى عزل هؤلاء عن الجماهير ، باعتبارهم ملاحدة لكي يعطيها هذا شرعية القضاء عليهم(٦) كما تهدف الى نقل الصراع الى مستوى ميتافيزيقي لا تستطيع عامة الجماهير متابعته ولا فهمه وبالتالي تحد من تاثيره في الجماهير .

أما الملاحدة فانهم يريدون بالحادهم تحقيق هدف سياسي : تحطيم هذه القوة الغيبية التي تستند اليها العلاقات الظالمة : أتقولون ان الله هو الذي أعطاكم وأفقرنا ، جعلكم ملوكا وسادة وحولنا الى عبيد تحذت اليكم ونصبكم قساوسة وأوصياء علينا !؟ اذن نقول لكم انكم كاذبون ، مزورون ، خداعون ، فالله من صنعكم انه غير موجود ، أنتم

---

(٦) وهكذا سجن مثلا فولتير في الباستيل ، وديدروت في فانسين ١٧٥٢ ، ومجلدين من الموسوعة أحرقت بأمر الكنيسة ، وأحرق كتاب دولباخ « الروح » كما أحرق القاموس الفلسفي ١٧٦٢ كما اضطر روسو الى الهرب . والامثلة على هذا الاضطهاد على مر العصور لا تحصى ولا تعد .

الذين أعطيتم لأنفسكم الثروة، ونصبتم من أنفسكم ملوكا واستعبدتمونا وجعلتم من أنفسكم متحذتين باسم ما لا يوجد الا في مخيلتكم !

ان الالحاد اذن الحاد سياسي بكل ما تحمله كلمة سياسي من معنى موجه ضد ركيزة نظام « العلاقات الظالمة » اذ كان يستحيل مواجهة النظام بدون مواجهة الكنيسة المتحالفة مع النظام ، ان الكثيرين من أنصار الثورة الفرنسية كانوا أعداء الدين لأنهم رأوا فيه قوة رجعية تواجه العقل بالعنف(٧) ، ولا يمكن تقليم أظافر الكنيسة الا بتحرير الناس من سيطرتها والكشف عن خداعها للجماهير ، لقد أعلنت الكنيسة الكاثوليكية غداة الثورة الفرنسية ان الجمهوريين كفرة ومارقين وان الملكيين هم عباد الله الصالحين الذين لهم جنات النعيم ، كما أعلنت كنائس أخرى في وقتنا هذا أن « الجماهيرية » كفر والحاد ، ما هو الرد المنطقي على هذا التحدي ؟ انه الالحاد ، لكن علينا أن نميز بدقة بين الدين الكنسي ودين الله ، والالحاد بالدين الكنسي لا يعني الالحاد بدين الله .

ان الملحد في حقيقته قد يكون أكبر المؤمنين : ألا يؤمن بحرية الانسان بكرامة الانسان ! بمستقبل الانسان وبالعدالة والمساواة ؟ ألا يهدف الى القضاء على الظلم والعبودية ! أليست هذه هي مبادىء الدين الصحيح ؟! أليست هذه ارادة الله الحقيقية ؟! أليسوا هؤلاء أقرب الى الله من أولئك « المؤمنين » الذين يخزرون عباد الله ويقنعونهم بالطاعة وبالخنوع وبالفقر والعبودية !!

ان الالحاد اذن موقف سياسي ، ولا يمكن تناوله الا على هذا المستوى أما مستواه الفردي فلا قيمة له ولا أهمية ، ومحاولة نقله الى

---

(٧) تاريخ الفكر الحر ، ص ٨٥ .

صراع بين الانسان والله أو بين العقل والدين هي تغييب لحقيقة الصراع ومحاولة لاخفاء جوهر الصراع، وجعل الالحاد صراع « دون كيشوتي » ضد طواحين الهواء .

ان الالحاد في ظل العلاقات الظالمة تبرئة لله مما ينسب اليه ، رفض أن يكون الله ظالما نصيرا للسادة ضد العبيد ، للشر ضد الخير ! وربما هذا أقرب الى الايمان من ايمان البابوات وذوي العمائم .

اذن الصراع ليس بين الدين والعقل ، فلكل مجاله الذي لايستطيع تعديه ، ولكل موضوعه الخاص به ، ولكنه في حقيقته صراع بين أناس استطاعوا التحرر من ربقة العبودية للكنيسة وملوكها وكهنتها وأثريائها ضد « نظام كنسي » يعمل بكل جهده على أن يبقى البشر نعاجا تساق الى المذبح تحت ستار ارادة الله بدون احتجاج ، وعلى يد الكنيسة يتحول الدين الذي في منطلقه توري الى « افيون » للشعب .

ان نضالنا اذن ــ بعد فهم هذه الحقيقة ــ هو نضال مزدوج : تحرير الدين من سيطرة « الكنيسة » وتحرير الجماهير من خرافاتها ، وضد الدون كيشوتيين الذين يحاربون طواحين الهواء بالحاد ميتافيزيقي .

د. رجب بودبوس